

هل كان ابن هشام من المجتهدين؟

إن ما سبق من دراسة ابن هشام، وما هُدى إليه وامتاز به من تضلع في العلوم ودراية بالفنون، وما كان له من أفق واسع، وما حباه الله به من ذوق سليم وفقه للأساليب اللغوية، وفهم صحيح للشواهد العربية، وما أخذ به نفسه من إخلاص للعلم، وما توفر له من أمانة وهو الثبت الثقة يملى علينا أنه من النحاة المجتهدين الذين حذقوا النحو بعد دراسة تفصيلية دقيقة وبحوث عميقة، وإذا كان أساس الاجتهاد بذل الجهد فأخلق بابن هشام أن يكون مجتهد زمانه في النحو غير مدافع، وإذا تفاوتت قدر المجتهدين وتباينت أقدارهم فابن هشام لا يفضل في النحو مجتهد سابق، ولعل لا أكون مبالغاً إذا رأيت أنه لا يعدله أحد من الرعيل الأول، ولي على ذلك دليلان:

أما الأول: فهو تأخره في الزمن مع ما امتاز به، وقديماً قيل: «كم ترك الأول للآخر» لأن المتأخر يتاح له أن يفيد بدراسته بسير الداهيين الأولين ويمتدح من عصارة ألبابهم فما استقام لهم قبله أقره، وما ابتعدوا فيه عن الجادة وجانفوا معه الصواب نأى عنه وسكّم منه.

هذا إلى ما يفتح الله به عليه مما لم يصلوا إليه.

وهكذا كان ابن هشام دائب البحث والتنقيب في آراء القدامى والمعاصرين لم يغادر رأياً لنحوى إلا وقف عليه، ولم يترك بحثاً إلا أنعم نظره فيه وانتفع به، ثم هو بعد ذلك ذو مرة وذو رأى جديد.

وأما الأمر الآخر: فقول العلامة ابن خلدون، وسيأتي في شهادات العلماء لابن هشام.
